قراءة في كتاب
الفن في الفكر الإسلامي: رؤية معرفية ومنهجية*

عيسى عودة برهومة**

شكَّل الجَمال في الفكر الإنساني عامة والفلسفي بوجه خاص البُعد الثالث مع قِيم الخير والحق، وجادت الحضارة العربية الإسلامية بسُهمة وفيرة في الاحتفاء بقيمة الجَمال، فكان له حضور في تنظيرات العلماء والفلاسفة، حيث استُدعي الحُسن مقابل القبح، وغدا الجَمال معياراً لقبول المظاهر المادية ومكوِّنات الحياة؛ تواصلاً، أو إنجازاً. ثم إنَّ الفلاسفة المسلمين متحوا من هذا الفيض الجمالي من كون الخالق جميلاً يحبُّ الجَمال، وما برحت الطبيعة والخلائق كلها تندغم بهالة الحسن والجَمال، فلم يكن الذوق الجمالي مُنْبتّاً عن هذا المنطلق الإيماني النابع من رسالة الإسلام، ولعل في ذلك مدعاة لتأصيل نظرية فنية جمالية تتكئ على فيوضات المشروع الإسلامي؛ وذلك أنَّ جذور هذه النظرية ضاربة في الفكر الإسلامي، وفي منجز الأُمة الحضاري، ثم إنَّ هذه النظرية التي نتطلَّع إلى تأصيلها تأخذ بعين الرعاية قِيم الدين ومعاييره من دون تحيُّف أو انكفاء، وتصطبغ بمعالم، مثل: التجريد، وبنية الوحدات، والتواليف المتلاحقة والحركية.

وقد تحذَّر الفن على نهج فلسفي يخاطب العقل قبل أنْ يتوجَّه إلى الحواس، فاستقر في دوائر المعرفة العربية والاستشراقية (الموضوعية) أنَّ الفن كان خدمة للحياة، وارتقاء بالذائقة الجمالية للإنسان، وأنَّه لم يقع في فخ التبشيرية أو الشعائرية أو المحاكاة، وإنَّما عزَّز

* ملكاوي، فتحي حسن (محرراً). **الفن في الفكر الإسلامي: رؤية معرفية ومنهجية**، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠١٣م، ج١.
– عكاشة، رائد جميل (محرراً). **الفن في الفكر الإسلامي: رؤية معرفية ومنهجية**، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠١٦م، ج٢.

** أستاذ اللسانيات المشارك في قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الهاشمية. البريد الإلكتروني: ebarhouma@hotmail.com

تم تسلم القراءة بتاريخ ٢٠١٦/٦/٢م، وقُبلت للنشر بتاريخ ٢٠١٦/٨/٢م.

حقائق الإيمان والخير والتأمُّل في ثنايا النفس، والسخاء في موضوع التوازن بين ما هو مادي وروحي، والنأي عن الإسقاطات الذاتية أو الأيديولوجية.

ونظراً إلى خطر الموضوع الجمالي في العصر الحديث، والرغبة في الخلوص إلى نظريةٍ في الجَمال والفن في الفكر الإسلامي الحديث؛ فقد فزِع المعهد العالمي للفكر الإسلامي إلى إصدار سِفْرين كبيرين كانا نِتاج أوراق بحثية ألقاها باحثون في مؤتمرين ندبهما المعهد للفن في الفكر الإسلامي، وتوزَّعت محاورها على أبرز ما يَشغله الفن في الأدبيات الحديثة، فكانت بحوث الجزء الأول من الكتاب في أبواب خمسة، خُصِّص أولها للفن الإسلامي: المصطلح والمفهوم. وانفرد الباب الثاني بحديثٍ عن الفن الإسلامي: نظرة فقهية مقاصدية؛ وذلك للتشابك بين الموضوع الجمالي والتشريع الإسلامي، ثم القول على عوائق التنمية الفنية في الفكر الإسلامي. وتناول الباب الثالث فن العمارة الإسلامية وجمالياته، ومكانة الضوء في العمارة الإسلامية، واستبار جمالياته في التكوينات المعمارية الداخلية والمنشآت السياحية في العصر الحديث. وتطرَّق الفصل الرابع إلى الفن الإسلامي: معالجات فكرية، فعرَّج فيه الباحثون على فلسفة الفن في الحضارة العربية الإسلامية في ضَوء منهج الفصل والوصل، والفكر الإسلامي المعاصر وعلم الجَمال، والتجريد في الفن الإسلامي، وجماليات الإيقاع في الفن الإسلامي، وجهود المستشرقين في دراسة الفنون الإسلامية. وخُتِم الكتاب بالباب الخامس الذي اشتمل على إضاءات لنماذج من التطبيقات في الفن الإسلامي، مثل: جماليات المنمنمات الإسلامية، وتأكيد الهُوية العربية في تصميم العلامة التجارية وَفق منهج الفن الإسلامي، وفن التوريق واستثماره في خزفيات الفن الإسلامي، وتطبيقات الفن الإسلامي في تصميم المحراب.

ولاستشعار المعهد أهمية الفن في الفكر الإسلامي؛ فقد عاود لإصدار سِفْره الثاني، وانبسطت موضوعاته في فصول تسعة، تناول فيها الباحثون الفن الإسلامي؛ مصطلحاً ورؤيةً، ومقصد الجَمال ووسائله من الفنون، والتناغم بين الفن وروح الإسلام في الفكر الإسلامي ومقارنة ذلك بالعقائد والفلسفات، والحس الجمالي في الإسلام، والدراسات

الاستشراقية للفن الإسلامي، وتفاعُل الفن الإسلامي مع الفنون غير الإسلامية، والدِّين والفن في تصوُّرات علي عزت بيجوفيتش، والتصميمات الزخرفية الإسلامية بين المفاهيم التشكيلية والنظريات العلمية، والبُعْدينِ: المادي والروحي لتوظيف الفنون الإسلامية الضوء في مجال التصميم.

ولعل القارئ في السِّفْرين يلمح تقاطعاً في موضوعات البحوث؛ فالرغبة في التأصيل ما زالت شاغلاً للباحثين، ودافعاً إلى الإفاضة في القول على المنهج والتنظير للفن في الفكر الإسلامي. ولكن، ثَمَّة مزالق بحثية زَلَّ فيها بعض الباحثين حين انصرفوا إلى التأصيل اللغوي لمفردات موضوعاتهم من دون توظيف هذه العتبات المنهجية في التأسيس لنظرية علمية للجمال والفن في الفكر الإسلامي، وتكرَّرت المقدمات في بحوث هذا الكتاب حين عرض أصحابها لمفردة الفن والجَمال، والقبح والحسن، وتعريفات العلماء والفلاسفة لتلكم المفردات من دون الخلوص إلى تعيينات ضابطة مستقاة من أدبيات الدراسة في الحضارة العربية الإسلامية، فتأبَّت هذه المصطلحات في بحوث الكتاب عن التعيين على وجه من الإحكام، وضلَّ عن هذه البحوث أنَّ مُخ العلوم يكمن في مصطلحاتها المنهجية.

وقد أَفرغ الباحثون في سِفْرين ضخمين الوُسع كلَّه في رسم نظرية منهجية للفن في الفكر الإسلامي، يكون لها خطرها وحضورها في علم الجَمال الحديث. وفي ظني أنَّ جملة البحوث يمكن الإفادة منها في تقعيد نظرية دقيقة تؤصِّل للفن في الفكر الإسلامي، إلى جانب ما تناوله الباحثون في الفنون الإسلامية؛ من: عربٍ، ومستشرقين حياديين.

ومما يؤنس إلى هذا المطلب أنَّ للفن الإسلامي معجبيه ومنظِّريه، بَيْدَ أنَّ هذه الجهود يعوزها التنظيم، والمؤسسية، والضبط الموضوعي، وقد تتأتَّى هذه الأمارات من فحص دقيق لما خلَّفه العلماء والفلاسفة المسلمون في الحِقب المنصرمة؛ فثَمَّة تنظيرات وفيرة في مصنَّفاتهم تصلح للتأسيس عليها؛ أجْلَ البدء منها لتأطيرها وَفق المنهج العلمي في العصر الحديث، والإفادة مما وقر في علم الجَمال الحديث بما يتسق وهُويتنا العربية الإسلامية. ولا شكَّ أنَّ في هذه التوليفة المحكمة التي تقارب بين القديم والحديث تبصُّراً ولطفَ نظرٍ

يشفَّان عن وشيجة تربط المتقادم بالمنجز الحادث، فضلاً عن نشدان النظرية من التربة العربية الإسلامية لتتضافر ومعايير الفن الإسلامي التي استقرت في الأدبيات العلمية، وظهرت سيماؤها في تطبيقات الفنون الإسلامية؛ قديماً، وحديثاً.

وسأعمل في هذه المقاربة على استصفاء أشتاتٍ مجتمِعاتٍ من وحي أفكار بحوث السِّفْرين اللذيْنِ أصدرهما المعهد العالمي للفكر الإسلامي، لعلها تكون صوًى دالَّةً في سبيل تأصيل نظريةٍ للجمال والفن في الفكر الإسلامي، وتشبه أنْ تكون المقاربة المنهجية ما استقر في مصطلح "الكتابة على الكتابة"، لا تكراراً لما انطوت عليه بحوث الكتابين.

أولاً: شريعة من جمال

الجَمال مُستكِنٌّ في تفاصيل الحياة، وهو مقصد من مقاصد الشريعة وجوهرها، وكذا شرط لمنح الإنسان صفة الإنسانية، وانطلاقٌ للفطرة والطبيعة وهتاف الروح للانعتاق من معوِّقات الحياة. ولا غرو أنْ أرجع العلماء الفعل الشرعي إلى الحُسن والجَمال. "ومَن أراد طرح البديل الحضاري الإسلامي، فلا بُدَّ له من مدخل الجَمال، علماً أنَّ التديُّن هو – أساساً– تجربة جمالية تعكس مدى فعالية طرح اتجاه من الاتجاهات أو مدرسة من المدارس، وهو كذلك مؤشر العمق لأيَّة مدرسة فكرية."[١]

وقد زيَّن الخالقُ الخلقَ كلَّه، وأحسن صنعه، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ﴾ (السجدة: ٧)، وقال سبحانه: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ﴾ (النمل: ٨٨)، وقال عز وجل: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ﴾ (الملك: ٣)، وقد أقرَّ الله الإحسان في كل مخلوقاته، فما خلا الحُسن من شيء إلا شانه.

وقال الرسول ﷺ: "إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ."[٢] وقال ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ يُحِبُّ الطِّيبَ، نَظِيفٌ يُحِبُّ النَّظَافَةَ، كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكَرَمَ، جَوَّادٌ يُحِبُّ الْجُودَ، فَنَظِّفُوا أَفْنِيَتَكُمْ

[١] ملكاوي، **الفن في الفكر الإسلامي: رؤية معرفية ومنهجية**، مرجع سابق، ج١، ص٧٨.

[٢] روى الإمامُ مسلمٌ في صحيحهِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْن مَسْعُودٍ ﷺ عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ". قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَناً، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. قَالَ: "إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ".

وَسَاحَاتِكُمْ، وَلَا تَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ... ."[٣] وقد قسَّم الأصوليون مقاصد الشريعة إلى ثلاث مراتب، هي:

أ. مرتبة الضرورات: هذه المرتبة تشمل حفظ الدِّين، وحفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ المال، وحفظ النَّسل أو العِرض.

ب. مرتبة الحاجيات: هذه المرتبة تكمل مرتبة الضرورات.

ت. مرتبة التحسينات: هذه المرتبة يندرج تحتها البُعْد الجمالي.

ويُستدَل بفقه المقاصد على استخلاص مشروعية الأعمال؛ "فثَمَّة أدلة مقاصدية أصولية تدعم مشروعية الفن وضرورته، نذكر منها:

– الفن ينسجم والفطرة الإنسانية، وبواعثه سامية تُضفي على الحياة البهاء والبهجة في الحياة.

– تنطلق القاعدة الأصولية من أنَّ الأصل في الأشياء الإباحة، والفنون في العصر الحديث لم يرد فيها نص النهي، وحكمها النَّدب، وقد تُعَدُّ من فروض الكفايات إنْ سُخِّرت في أمر الدعوة والتبليغ.

– الحاجة تُنزَّل منزلة الضرورات عامةً كانت أو خاصةً؛ فالحصول على المقاصد الشرعية يستدعي القول بمشروعية الفن، والفن في هذا العصر مما تدعو إليه الحاجة، وتُسوِّغه المصلحة.

– ما لم يتم الواجب إلا به فهو واجب، فإن لم نستطع القيام بالواجبات في بعض الأحيان إلا بالفن، يصير الفن من فروض الكفايات."[٤]

فالجَمال من مقاصد الشريعة، وهو ركن كلي تحسيني، وليس في المكنة أنْ تقوم حياة بغير هذه الثلاثية (الضرورات، والحاجيات، والتحسينات). فلا جَرم أنِ التصقت قِيم الجَمال بالشريعة منذ تخلُّق الدِّين، فتجلَّى الجَمال في العبادات والعقيدة ومقتضيات

---

[٣] رواه سعيد بن المسيب. انظر:

– المباركفوري، محمد عبد الرحمن. **تحفة الأحوذي في شرح جامع الترمذي**، بيروت: دار الفكر، ٢٠١٠م، مج٨، ص٨٢–٨٣.

[٤] ملكاوي، **الفن في الفكر الإسلامي: رؤية معرفية ومنهجية**، مرجع سابق، ج١، ص١٢٥– ١٣٧.

الوجود، وتطلَّعت إليه النصوص النقلية، وأكَّدته المقاييس العقلية، فهو من أرسخ الحاجات للبشر.

ثانياً: الجَمال والفن بين فلسفتين

إذا كان أساس الجَمال والفن في فلسفة اليونان والفلسفة الغربية الحديثة حِسِّياً متعالياً وتجسيداً للواقع، فإنَّ الجَمال والفن وَفق الفلسفة الإسلامية إعلاء من الحكم الجمالي المطلق، وتوثيق لعلاقة الخلق بالخالق، وهي علاقة حَدْسية لا حِسِّية.

وتكمن المغايرة في النظرة إلى الجَمال والفن لكلتا الفلسفتين في تفاصُل المنطلقات العَقدية للكون والحياة؛ فقد ارتبط الجَمال في الفلسفة اليونانية ببُعْد حِسِّي، فجاء محاكاة للأشياء ومكوِّنات الطبيعة، وتغلَّف بمسحة مادية غرائزية، واكتسى في الفلسفة الغربية، بدءاً بالرومان، وانتهاءً بالغربيين المحدثين، بهالة أُحادية تجسيدية وشعائرية تقريرية، فانبسط الفن تبعاً لهذه الفلسفة في إيقاظ الأحاسيس، وسُخِّر في خدمة المسيحية والتبشير بها، في حين كانت الفنون في الإسلام تغرف من قِيم الإسلام وعقيدته، فوازنت بين المادي والروحي، ونأت بنفسها عن الدوغمائية المطلقة، وأصبح الفن نشاطاً إنسانياً يضفي المتعة على الحياة والمتلقِّين، ويأخذ النفْس الإنسانية من ضيق الأحاسيس إلى سَعة الوجدان، ومن الارتكاس في دائرة الظواهر الثابتة إلى الانطلاق نحو الحركة الدائبة، فغدا الفن في الإسلام خادماً لقِيم الحق والخير والجَمال، وعاملاً بنائياً، لا طليقاً مع الأهواء والهدم.

ثالثاً: علاقة الإسلام بالفن

أتى على الباحثين الغربيين وبعض العرب حينٌ من الدهر لم يكونوا مقتنعين فيه بأنَّ ثَمَّة تلاقياً بين الإسلام والفن؛ فالإسلام دين له شعائره وضوابطه العَقدية والسلوكية، والفن انعتاق من كل عقال، وانسياح في اللانهائي من الوجود، فكيف لمتناقضينِ -ظاهراً- أنْ يلتقيا؟! وبذا، حُمِّل الإسلام أثقالاً موهومةً في علاقته بالجَمال والفن، وانتقلت هذه الحمولات الخطأ إلى شرعية المصطلح بوجود فن إسلامي؛ فالفن لا يعترف بهذه

التقسيمات، والإسلام -بحسب المعترضين على مصطلح الفن الإسلامي- لا يعطي المساحة الكافية للنهوض بالفنون، مما يحول دون ترسيم نظرية جمالية في الإسلام. والواقع أنَّ في هذه الأحكام جوْر صُراح، وإثبات لخصومة مفتعلة بين الدِّين والفن؛ إذ لا تعارض -بالجملة- بين الإسلام والفن بمفهوميه: العام والخاص، والفن الإسلامي لا يُسخِّر عنايته عن الإسلام، وإنَّما كل فن يخاطب النفس الإنسانية، وينأى عن غرائزيتها، ويستدعي منطويات الخير فيها هو فن إسلامي، وتصوُّر لقِيم الإسلام ومبادئه؛ فلا تعارض بين مفهوم الإسلام للجمال وما استقر في أدبيات بعض المحدثين. وكان جورج سانتايانا قد عرَّف موضوع الجَمال بأنَّه القِيم، وأنَّ الجَمال هو القيمة الإيجابية النابعة من طبيعة الشيء خلعنا عليه صفة الموضوعية.[٥]

"ولا غرابة أنْ يلتقي الإسلام بالفن، بل الغرابة ألا يلتقيا، فكلاهما ينشد الجَمال، وكلاهما يزيِّن الحياة، ويهذِّب الوجدان، وكلاهما انطلاق للفطرة والطبيعة، وهتاف لحرية الإنسان."[٦] والفن انعكاس مرآوي لمكوِّنات الحضارة الإسلامية، وتأصيل لقِيم الشريعة السمحة، وأنا شخصياً لا أجد ضيراً من مصطلح الفن الإسلامي، أو نظرية الجَمال في الإسلام؛ ففي المصطلح شيء من هُوية الأُمة، وتأسيس لحقل معرفي أنطولوجي في مجالات العلم واشتغالاته. ولهذا، يتعيَّن على الباحثين في الحضارة الإسلامية أنْ ينهدوا لتنهيجٍ تأصيليٍّ لنظرية الجَمال والفن في الإسلام، والخروج من دوائر دفع الشبهات عن الإسلام إلى الحفر في بُعْده الحضاري لصوغ هُويةٍ بيِّنةٍ لملامح الجَمال والفن في الإسلام، وتأطير ذلك في أسس علمية منهجية موضوعية.

رابعاً: مبادئ تأسيسية للفن في الإسلام

يقوم الفن الإسلامي على مبادئ وأُسس لا يحيد عنها، هي:

أ. التوحيد: التوحيد ركن أساسي في العقيدة الإسلامية، وأساس في التفكير للمسلم؛ فحياة المسلم ومعاشه وكل منشط من مناشطه يقترن بنَسَب حميم ورباط متين بالتوحيد،

[٥] عكاشة، **الفن في الفكر الإسلامي: رؤية معرفية ومنهجية**، مرجع سابق، ج٢، ص٦٣.

[٦] المرجع السابق، ج٢، ص٤٩.

وكذا الفنان المسلم الذي اتخذ من هذا الركن منطلقاً لأعماله الفنية، فوالَفَ بين الماديات والروحانيات، و"أقام علاقة جمالية يرتكز عليها الإحساس الجمالي من خلال الاتزان والتوافق والتناغم بين الخالق والمخلوق."[٧]

ب. الوحدة: ثَمَّة صلة بين التوحيد والوحدة، "فالأشياء تكتسب قيمتها الجمالية بما فيها من وحدة وتناسق وانسجام، ظاهر وباطن، بمدى ارتباطها بالكلي الجمالي، فالعلاقة بين المادة والشكل علاقة وحدة."[٨] ونحن نجد لهذا المبدأ جنيساً في فلسفة الجَمال عند المحدثين؛ فالجَمال في فلسفة هيجل هو: "الفكرة التي تُعبِّر عن الوحدة المباشرة بين الذات والموضوع."[٩]

ت. الحركة: الفن الإسلامي فن حركي، لا ركون فيه إلى السكون؛ فهو سلوك دائب لملامسة أسرار الكون اللانهائية، وتحقيق للحس الجمالي في تفاصيل الحياة ودلالاتها، وتعبير عن آيات الله الماثلة في مخلوقاته.

والفن في الإسلام انعكاس لقِيمه وتشريعاته، ونماذج مشخِّصة لروحه، واسترفاد مبدع لأساسه العَقدي، وهو يُعلي من قيمة المشترك الإنساني، ويوطِّد من علاقة الجذب نحو المركز التي تتعلق بنياطه كل المخلوقات، وتهيم كلها بالواحد المطلق؛ لأنَّها أثر من آثاره المبدعة.

خامساً: معايير الجَمال في المنظور الإسلامي

يُعَدُّ علم الجَمال أحد فروع الفلسفة إلى جانب علم الأخلاق وعلم المنطق، وهي علوم معيارية؛ لأنَّها تُعنى بما ينبغي، لا ما هو كائن. وقد بذل الفلاسفة المسلمون الوُكْد كله لترسيم هُويةٍ وخصوصيةٍ للفلسفة الإسلامية تأتلف والمُناخ الإسلامي، فلم يكونوا مقلِّدين لما استقر في فلسفة اليونان؛ إذ الجَمال في الإسلام ذو قيمة إيمانية واقعية تلامس الفطرة الإنسانية التي تهفو إلى الجَمال، وتدعو إليه، وتحقِّق تكاملها وانسجامها. يقول

[٧] المرجع السابق، ج٢، ص٤٩.
[٨] ملكاوي، **الفن في الفكر الإسلامي: رؤية معرفية ومنهجية**، مرجع سابق، ج١، ص٦١٤.
[٩] المرجع السابق، ج١، ص١١٣.

سوريو: "إنَّ الروحية الإسلامية تجد لها ضمانات في الفن التجريدي، ولكنَّه تجريد ينبثق من عقيدة الإسلام ذاتها، ومن التصوُّر الإسلامي للوجود."[١٠]

وللجَمال في الإسلام بُعْد مقصدي، وهو لا يُقِرُّ بفكرة الجَمال للجمال؛ فهي نأْي عن حِسِّه الإنساني، وصُدوف عن دوره النهضوي في تهذيب الفرد وتوعية المجتمع. وثَمَّة معايير ضابطة لنظرية الجَمال في الإسلام، هي: التجريد، والتوليف بين وحداته، والتنوُّع في إطار الوحدة، والتكرار، والحركية، والتداخل.[١١]

وأمَّا التجريد فقد برز في الفن الإسلامي، وصار ملمحاً لموضوع الجَمال في الإسلام، وتبدَّى "عملية رياضية تأملية؛ إذ يتطلَّب تناغماً بين العقل والحس اللذيْنِ يتكاملان معاً للوصول إلى الرمز أو الشكل النهائي الذي يمثِّل الكيان والقانون العام الذي يحقِّق هدف التجريد."[١٢]

ويرى عفيف بهنسي أنَّ النزوع إلى التجريد في الفن "يرتبط بمفهوم فني خاص، مآله أنَّ الصورة يجب أنْ تتجه نحو المطلق، وليس نحو المحدَّد، تتجه نحو الجَمال المحض (الجَمال بذاته)، وليس نحو جمال الأشياء التي تخضع للحاجة المادية والضرورة. أمَّا الجَمال المحض فإنَّه مجرَّد عن المنفعة، هو جمال فني، وليس جمالاً نسبياً مرتبطاً بأهمية الشيء."[١٣]

وليس بالمستطاع فهم هذه المعايير الستة الآنف ذكرها بمعزل عن فكرة التوحيد في الإسلام؛ فكل ملمح يدور في مدارات متناسقة حول محور مركزي هو وحدانية الله، فباتت فكرة التوحيد إلى جانب التجريد والإنسانية والجَمال المتكامل، أبرز أُسس الحِسِّ الجمالي في الإسلام.

وللجمال في الإسلام مقوِّمات تعضده وتشد أزره، مثل:

- جمال كل شيء بصفاته اللائقة به.
- سلامة الشيء من العيوب هي أحد مقوِّمات جماله.
- التنسيق، والضبط، والإحكام.

---

[١٠] المرجع السابق، ج١، ص١٢٠.

[١١] عكاشة، **الفن في الفكر الإسلامي: رؤية معرفية ومنهجية**، مرجع سابق، ج٢، ص٧١.

[١٢] المرجع السابق، ج٢، ص٢٥٢.

[١٣] ملكاوي، **الفن في الفكر الإسلامي: رؤية معرفية ومنهجية**، مرجع سابق، ج١، ص٤٨٨.

وثَمَّة خصائص للحس الجمالي، هي:

- الفطرية.
- الشمول.
- التوازن.[١٤]

فليس ثمة حِسٌّ معتبر ما لم تتكامل هذه العناصر لتحقيق الغاية من الجَمال؛ وهي الإمتاع والارتقاء بالذوق الخاص والعام، وإخراج الإنسان من رتابة الحياة إلى سَعة الآفاق المعرفية وتجليات الروح.

سادساً: من إشكاليات الفن الإسلامي: التصوير أنموذجاً

اكتسى موضوع الفنون في الإسلام غلالة من الإشكاليات تنوَّعت مصادرها، وتباينت مسوِّغاتها، وكان في مقدمة هذه الإشكاليات الموقف الفقهي؛ إذ ثار الجدل في موضوع الفنون عامة والتصوير بوجه خاص، وتوزَّعت الآراء في التصوير والتجسيم إلى مواقف ثلاثة:

أ. رأي المانعين للتصوير بالعموم، وحُجَّتهم أحاديث نبوية وردت في زمان ومكان محدَّدين.

ب. موقف الذين يبيحون التصوير استناداً إلى فقه المقاصد؛ بدرء المفاسد وجلب المنافع، انسجاماً مع الدَّور الذي يشغله التصوير في الحياة المعاصرة.

ت. موقف الذين يبيحون نوعاً محدَّداً من التصوير الذي ينأى عن التجسيم.

والحقيقة أنَّ الفقهاء في العصر الحديث لم يقطعوا بموقف حاسم حيال قضية التصوير، وما يزال الموضوع مفتوحاً على رؤًى متعدِّدة، وإنْ كان ثَمَّة مَن يميل إلى مقولة أنَّ الأحكام في الشرع لا تُؤخَذ من ظاهر النصوص، وإنَّما يراعى تغيُّر الأحكام لتغيُّر الزمان والمكان. وتمثِّل هذه الإشكاليات تركة ماثلة في التعليم الديني لعصر من العصور، وكذا إعداد المسلم إعداداً حضارياً يستعيد فيه وحدة الأُمة وشهودها الكوني، ولا سيما أنَّ التصوير في العصر الحديث لا يحمل محاذير دينية كما كان في عصر الرسول ﷺ؛ فعِلِّيَّة

[١٤] عكاشة، **الفن في الفكر الإسلامي: رؤية معرفية ومنهجية**، مرجع سابق، ج٢، ص١٢٣.

التحريم في ذلك العصر انطوت على مُشاكلة وثنية، "ولا يختلف مسلمان في رفض الصورة لأغراض دينية بكل أشكالها مجسّمة وغير مجسّمة، وتحريمها لديهم، ولا يخالط خيال أحد منهم شيء من هذا؛ لأنَّ عقائدهم لا تستدعيها، ولا تخدم هدفاً نافعاً عندهم في دينهم.

والصورة التي يدور حولها التخليط والخلاف في هذا العصر ليست الصورة لأغراض دينية، ولكن هي الصورة في أشكالها المختلفة لأغراض علمية وتعليمية وإعلامية وترويحية، وهي صور وأغراض -إذا كان لدينا أيُّ قدر من الوعي على الزمان والمكان- نعلم أنَّها لا تتعلق بالأغراض الدينية، ولا بالأحاديث النبوية، ولا بالأغراض التي توخَّتها الأحاديث على عهد الرسالة، وبذلك فإنَّه لا معنى لاستدعاء تلك النصوص وتلك التوجُّهات بشكل حَرفي لغوي في هذا العصر، ولمناسبة أغراض التصوير في هذا العصر."[١٥]

وينسحب تناول قضايا الحياة كلها وقضايا الفن الإسلامي تحديداً بفقه المقاصد، وإدراك التحوُّلات التي تحيط بنا؛ على التدابير الواعية التي لا تُضيِّق واسعاً، ولا تعتصم بظاهر النصوص من دون القبض على كُنْه الأحكام وسيرورتها في الزمان والمكان. ولعل الحاجة تقتضي أنْ يعيد الفقهاء في العصر الحديث رجعاً من النظر وحُسْن التأتي للقضايا التي تنطوي على قدر من الإشكاليات، فإذا قيل إنَّ القرآن الكريم حمَّال أوجه، ومنفتح على متعدِّد من التأويل، فإنَّ الخطاب الديني يحمل وفرة في مسألة التأويل، والاحتكام إلى فقه الأولويات، واللقاء على كلمة سواء تُغلِّب مصالح الأُمة على كل خلاف.

من أين نبدأ؟

أجاد المعهد العالمي للفكر الإسلامي بإصداره هذين السِّفْرين الخاصَّين بالفن في الفكر الإسلامي؛ وذلك تضافراً مع منهجيته في إعادة صياغة المعرفة الإنسانية وَفق الرؤية الكونية التوحيدية، عن طريق الجمع بين القراءتين: قراءة الوحي وقراءة الكون، والإصلاح المنهجي للفكر الإسلامي، وإعطاء الاجتهاد مفهومه الشامل بوصفه يمثِّل التفاعل المستمر لعقل الإنسان المسلم مع الوحي الإلهي، سعياً لتحقيق مقاصده وأحكامه

[١٥] أبو سليمان، عبد الحميد. "أسس الحكم الشرعي في التصوير والتجسيم"، **مجلة إسلامية المعرفة**، س٩، عدد٤٠، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص٢١٣.

وتوجيهاته؛ فكراً، وسلوكاً، ونظماً، ومؤسساتٍ في إطار الأوضاع الاجتماعية والتاريخية المتغيِّرة.

ويمثِّل الفن في العصر الحديث حاجةً لازمةً، ومقصداً من مقاصد الحياة، مما يستدعي بناء تصوُّر منهجي لنظرية الفن في الفكر الإسلامي، نُسْعِد النظر فيها بقراءة ما أنجزه الفنانون في سالف الحِقب، وتفكيك هذا الإبداع وتحليله للخلوص إلى ملامح دقيقة للفن الإسلامي عبر العصور، ثم البناء على تنظيرات الفلاسفة المسلمين في موضوعات الجَمال والفنون؛ لأنَّها تمثِّل إطاراً منهجياً تأسيسياً ثَرّاً. فقد تناول الفلاسفة قِيم الجَمال والحُسن، وبحثوا كيف تتحقَّق المتعة والبهجة في الأشياء، ونهلوا من علوم الفلسفة عامةً وفلسفة الجَمال وارتباطها بفلسفة الأخلاق وقِيم الحق بما يمثِّله علم المنطق، فكان هذا الإرث منفتحاً على روافد من فلسفة اليونان، ومدركاً للخصوصية الإسلامية، مما أضفى هُوية على المعرفة الجمالية والحس الفني آنذاك تجاوزت حالة الانسداد المعرفي.

ثم يتعيَّن علينا الإفادة من الدراسات التي خطَّها الباحثون العرب والمستشرقون الذين عُنوا بالفن الإسلامي، ونظم هذه الجهود بخيط منهجي؛ درءاً للتشتُّت المعرفي، وتنفيذاً للمؤسسية في تأصيل العلوم، فكثيرة تلك البحوث في الفن الإسلامي التي تستأهل أنْ تُوظَّف في مشروع نظرية جمالية وفنية في الفكر الإسلامي.

وتوجد ضرورة أخرى تتمثَّل في عمل الراشدين من المفكرين والمشتغلين بعلوم الشريعة على تذليل العقبات العالقة في إشكاليات الفن الإسلامي والفنون الجميلة عامةً؛ لترسيم رؤية تستأنس بالفقه المقاصدي، وتسترشد بحاجات الأُمة وبناء مشروعها الحضاري، فلا توطين للمعرفة ما لم تتضام جهود العلماء والمفكرين في شتى الحقول التي يشتمل عليها مشروع الأُمة.

ولعل من القضايا التي تشغل مكانة مهمة في أيِّ علم قضية المصطلح وصياغته؛ فجوهر العلوم يكمن في مصطلحاتها، ولا نهوض لأيِّ علم بغير مصطلحات كافية ومضبوطة تبعاً للأصول الدقيقة في علم المنهج، وما انفكت المصطلحات في الفن الإسلامي تعاني فوضى وتشتُّتاً، فلا فن من دون فكر أصيل ومصطلحات تلبي حاجة المشتغلين بالفن الإسلامي، وتبرز الحاجة في أنْ يلتفت الباحثون في تشقيق المصطلح

الفني إلى الخصوصية الثقافية للأُمة، والوعي اللغوي في بناء المصطلح، ومراعاة الإجماع، والنأي عن الفردية في صياغة المصطلح، فلا مشاحة في الاصطلاح، فضلاً عن تولِّي مؤسسات أكاديمية رعاية قضايا المصطلح للفنون الجميلة في الفكر الإسلامي، وتأليف المعاجم الاصطلاحية الخالصة لهذا الضَّرب من المعارف، وتوفير سبل النشر الورقي والإلكتروني لها عبر قنوات واسعة؛ ليفيد منها الباحثون في الفن الإسلامي.

وتبقى الحاجة لازمة إلى تنظيم الندوات والمؤتمرات الدورية التي تُمحض للفن الإسلامي؛ بغية تقييم منجزات هذا القطاع المعرفي، والسعي لتطويره ونمائه، والتطلُّع إلى إبداع فنونٍ معاصرة تفيد من إرث الأُمة، وتسترفد ما أبدعه الفكر الإنساني في العصر الحديث. فالعلوم إنجاز جماعي، وجهد تراكمي، والتأصيل لأيِّ حقل معرفي يستدعي التراصف، والضبط المنهجي، والانفتاح على علوم العصر بوعي وثقة.